الأبعاد الجمالية للمكان في القصيدة العربية
(دراسة في بعض النماذج من الشعر الجاهلي)

الأستاذ: فواز معمري
قسم اللغة و الأدب العربي
كلية الآداب واللغات
جامعة المسيلة (الجزائر)

ملخـــص:

يقف هذا المقال على دراسة حدود المكان وعلاقته بالشاعر، وما يتركه من آثار اجتماعية وفنية ونفسية تسهم في تحريك مجرى الأحداث، وذلك بوصفه عنصرا جماليا يحمل في طياته مجموعة من المعاني تأسست عليها حياة العرب في العصر الجاهلي.

فهو جزء لا يتجزأ من كل الموجودات وحاضر بكثافة في حركتها وسكونها، وهذا ما زاد من أهميته في النصوص الأدبية، بحيث أصبح وسيلة يقدم من خلالها الشاعر نظرته وتصوره للواقع، وما يزخر به من مختلف التناقضات وضروب الصراعات. وقد كانت خطوات هذا البحث كالآتي:

كان الحديث في بداية هذا المقال عن طبيعة ومفهوم الجمال و المكان(لغة- واصطلاحا) ثم التكلم عن الأبعاد و المعاني الجمالية التي يحملها المكان، ومدى تأثير ذلك على الشاعر الجاهلي.

الكلمات المفتاحية: المكان، الذات، العلاقة، البيئة، الديار، الصحراء،الفضاء.

Abstract:

This paper deals with the study of the place limits and its relation to the poet, and the social, artistic and psychological effects it leaves, which Contribute in the moving of events course, by dealing with the place as an aesthetic element carries a number of meanings founded on the life of Arabs in the pre-Islamic era.

It - the place- is an integral part of all the whole, and ubiquitous in its movement and persistence, and this has increased its importance in literary texts, so that it became a way through which the poet presents his perception and imagination of reality, throw the different contradictions and conflicts.

The steps of this research are as follows:

At the beginning we tackle the nature and concept of beauty and place (literally - and terminologically), Then talk about dimensions and aesthetic meanings carried by the place, and the extent of the impact of it on the pre-Islamic poet.

Keywords:
Place, self, relationship, environment, home, desert, space.

تمـــهيد:

حظي الشعر العربي بمكانة متميّزة مرموقة، منذُ القديم؛ إذ مثل الحياة الجاهلية بكل جوانبها ومظاهرها فعبر عن النفسية العربية في ذلك العصر، وعن القيم والأخلاق لاجتماعية السَّائدة في المجتمع الجاهلي في تلك الفترة وذلك من خلال تصويره للواقع الاجتماعي والنفسي للعرب في العصر الجاهلي. فصور الشعراء الحياة بكل ما تأتى لهم من أدوات فنية وشعرية، فأبدعوا في إبراز العديد من صور الطبيعة الخارجية المحيط بهم، هذه الطبيعة التي شكلت أبعاد عالمهم الذي وجدوا بين جنباته محيطًا مناسبا تفاعلوا معه، وعبروا عنه بما يجسد مكنونات نفوسهم، مع تلك البيئة. فانطلق الشاعر الجاهلي من قلب الصحراء وقسوتها فكان يجد ملاذه في الخمرة والنساء والشعر، ويتلذذ بالصَّحراء تلك المساحة الواسعة لمخيلته من الصيد والثأر والحب أحياناً، وبالثورة الكلامية الشعرية أحياناً أخرى هذه الصفات والميزات من القيم ذابت واختزلت في المكان، فهو يشكل بالنسبة للشاعر عاملًا لتحريك شاعريته من خلال علاقة التلازم التي تسهم في تداعي الذكريات، وما يحمله من حالات نفسية، هذا المكان الذي راح الشاعر الجاهلي من خلاله يصف ويستحضر الماضي بأفكاره وتجلياته وقيمه ومبادئه وأخلاقه، رابطاً بذلك بين الماضي والحاضر الذي يعيشه.

ولاشك أن للمكان حضوراً قوياً وفاعلاً في النَّفس الإنسانية، إذ يرتبط بوعي الإنسان منذ نعومة أظفاره حيث يختزن في ذاكرته أشياء كثيرة من العواطف والذكريات الإيجابية أو السلبية،كما يختزن في مخيلته العديد من الجزئيات الصغيرة والكبيرة، التي تظل محبوسة في ذاكرته حتى يجد لها المتنفس ولو بعد حين، فالمكان ليس مجرد مساحة، أو قطعة أرض أو حيزاً جغرافياً لا يعني شيئاً لهذا الإنسان، بل هو جزء لا يتجزأ من حياته؛ لذلك نجده يشكل حضوراً قوياً عند الكثير من الشعراء، فنراهم يتغنون بأسماء البقاع والبلدان والأماكن التي كان لها التأثير الكبير في نفوسهم. فعلاقة الإنسان بالمكان تكَّمن في مدى ارتباطه الوثيق به منذ ظهوره على هذه الأرض، ليحقق وجوده وانتماءه في ظل أمكنته ومتطلباته الحياتية التي تشعره بالحرية والكرامة، كما تشعره بالاستقرار والحماية وهذا ما جعل الإنسان يذهب إلى أن الأمكنة ليست جميعها مما يمكن أن يتوفر فيها الراحة والاستقرار، فكما توجد أمكنة تتوق النفوس إلى سكناها وتتشوق إلى الارتماء في أحضانها، فإن هناك أمكنة مقابلة تنبذها النفوس، وتفر منها فراراً، وكلا هذين النوعين وجدا اهتماماً من الشعراء.

والشاعر الجاهلي شاعر مغرم بالمكان، وله علاقات وطيدة به سواء في أرضه أو في غيرها، فنراه يستدعي العديد من الأمكنة والمواضع ويتغنى بها في قصائده فكان استحضاره لهذا الجانب في نصوصه بحسب الحالة التي هو فيها.فكان المكان بذلك من أهم المظاهر الجمالية، التي أهتم بها الشاعر

الجاهلي، فالشاعر الجاهلي كان متعلقاً ببيئته، ومتشبعاً بثقافة مجتمعه، ومرتبطاً بطبيعة أماكنه وجمالها، فوصفها متغنياً بجمالها وهو في أحضانها فإذا ابتعد عنها طار إليها شوقا وتلهفا معبرا عن ذلك من خلال نظمه لقصائد طوال يَرُوحُ بها عن نفسه.

فماذا نعني بالجمال لغة واصطلاحاً، وما هي نشأته عند العرب والغرب؟ وما مفهوم المكان لغة واصطلاحاً؟ وما هي أبعاد المكان الجمالية في الشعر الجاهلي؟

أولاً- مفهوم الجمال (لغة- اصطلاحاً):

لقد ارتباط الإحساس الجمالي بالذوق الفردي للإنسان منذ القدم إلى يوما هذا الجانب الذي جعل الإنسان يرقى إلى تشكيل قانون جمالي، فقد رافق هذا التذوق الفنون والحكم على جمالها طبائع الإنسان، وما يحمله من عواطف وأحاسيس، مما يعني أن التذوق الجمالي قديم قدم الإنسان، وهو مرتبط بمفاهيم ومنطلقات شكّلت بذور النظريات الجمالية القديمة، حيث ظهرت العناية في تلك الفترة بهذا العلم وخاصة عند اليونان، إذ كانت هناك بعض الآراء الفلسفية تتكلم عن الجمال تمثلت في أعمال كل من "سقراط" و"أفلاطون" و"أرسطو"، فظهرت أفكارهم في علم الجمال، ثم أخذت في الانتشار في بقاع العلم. وقد مست هذه الأفكار العقلية العربية في تلك الفترة.فماذا نعني بالجمال لغة واصطلاحاً، وكيف نشأ عند العرب والغرب؟

- لغة :

إن المتتبع لجذور كلمة الجَمَال في المعاجم العربية يجد أنها جاءت من المصدر: " الجَمِيل، والفعل جَمُل"1. ويذهب ابن سيده إلى أن لفظة الجمال تعني: الجمال الحسن يكون في الفعل والخلق. وقد جَمُل الرجل، بالضم جمالاً، فهو جميل وجُمَال بالتخفيف هذه عن اللحياني، وجُمَّال الأخير لا تكسر. والجمال بالضم والتشديد: أجمل من الجميل. وجَمَّله؛ أي زينه. والتجمل: تكلف الجميل. أبو زيد: جَمَّل الله عليك تجميلاً إذ دعوت له أن يجعله الله جميلاً حسناً. قال ابن سيده: يجوز أن يكون أجمل فيه بمعنى جميل وقد يجوز أن يكون أراد ليس بأجمل من غيره"2. فالأصل اللغوي للمفردة لا يقف عند البعد الحسي الدال على البهاء وحسن المنظر في الوجه فقط، وإنما يتجاوزه إلى البعد المعنوي، الذي يتمثل في جمال الأفكار والأعمال.

نفهم من هذا الكلام أن الجمال يكون فيما نحس به ونلمسه؛ أي في الجانب الحسي، ويكون كذلك في غير المحسوسات أي في الجانب المعنوي (العقل).

- اصطلاحاً:

لقد عبر الشاعر العربي بواسطة الشعر عن كل ما يشعر ويحس به، سواء كان يخص محيطه الداخلي أم الخارجي، فتحدث عن الأثر الانفعالي وسحر البيان الذي يملك نفس الإنسان،

وذلك من خلال توظيفه الأساليب البلاغية كالصور البيانية، والمحسنات البديعية، هذه الأساليب التي ساهمت في تطوير العقلية الجمالية العربية وأضفت عليها قيم ومبادئ جمالية دلت على الوعي الجمالي لدى الشاعر العربي بصفة خاصة، وتجليات ذلك على الشعر العربي بصفة عامة.

من هذا الباب كان الشعر عند الجاهليين صورة حقيقية تعبر عن أفكارهم الجمالية وتصوراتهم، تعمل على تأكيد ذاتية الشاعر الجاهلي في تصوير إحساسه الفردي بالجمال فيما يقوله ويشعر به، بطريقة تجسد القيم الجمالية وكل ما له علاقة بحياة الشاعر من عادات وتقاليد اجتماعية، التي لا تفارق الإطار العام للقبيلة. فكان الشاعر يرسم لوحته وينسجها ببناء جمالي فكري وجمالي يشكل به مادته الشعرية. فماذا كان يعني الجمال عند العرب؟

- الجمال عند العرب:

يعدّ" الجاحظ" من الأدباء العرب الذين تطرقوا لمصطلح للجمال؛ إذ يقول:" إن الحسن (الجمال) أدقّ وأرقّ من أن يدركه كل من أبصره"3؛ فمعرفة الجمال عند" الجاحظ لا يتأتى إلا لمن كان ماهراً في النظر. كما ذهب عبد القاهر الجرجاني في كتابه" دلائل الإعجاز" إلى تأسيس قواعد فنية لصناعة الأدب وتذوقه، ونلمس ذلك في نظرية النظم التي جاء بها؛ فتحدث فيها عن المقاييس والأسس جمالية، وربط فيها لجمال بعالم النفس، من هذا الباب كان علم الجمال هو" مجموعة الأسس والنظرية والقواعد والقوانين التي ندرس في ضوئها التجربة الإنسانية ونمتحن من خلالها الخبرة الجمالية، ونتذوق عناصرها الفنية، وقيمها التصويرية والتعبيرية والتشكيلية؛ فعلم الجمال العربي يؤدي إلى إدراك ماهية الجمال الفني"4. وإذا كان عبد القاهر الجرجاني تحدث عن الأسس الجمالية في نظريته النظم فإن أبو الهلال العسكري ربط الكلام الحسن والجميل بمدى ما يحمله الملتقي من مخزون ثقافي، وحالته النفسية، وكذا ذوقه الجمالي؛ فالكاتب لا يكتفي بإرسال رسالته بشكل تقرير فحسب، وإنما قد يرسلها على سبيل المجاز، مستخدماً أساليب مرافقة لها كالإشارة والترميز والتلويح... الخ ليزيد كلامه ونصه إشراقاً وجمالاً. كما تكلم ابن طباطبا في كتابه" عيار الشعر" عن الجمال، وذلك حين ربط بين حسن اللفظ والمعنى فقال" وكلام الذي لا معنى له كالجسد الذي لا روح فيه"5؛ فالعلاقة بين اللفظ والمعنى- في نظر ابن طباطبا- هي علاقة تكاملية، تجمع بين جمال الشكل وجمال المضمون. فالجميل إنما هو تجلي الروح والأفكار في الأشياء والظواهر عن طريق الحواس التي تجسد تلك الجمال، لتصل بالكلام العربي إلى مرتبة البيان الناصع المؤثر الساحر الذي يثير النفس والفكر.

- الجمال عند الغرب:

ظهرت بوادر وجذور هذا العلم على يد الفيلسوف الألماني" فريدريش هيجل" (Friedrich Hegel) هذا الأخير الذي وضع اللمسات الأولى لعلم الجمال في كتابه " كتابه محاضرات في علم

الجمال"، حيث يقول في هذا الباب:" فلسفة الفن الجميل، والقدرة على الإبداع والتذوق الأكثر صدقاً وجمالاً"6، ثم جاء بعده" ايمانويل كانت" (Immanuel Kant) الذي يعد من أكبر مؤسسي علم الجمال المادي، حيث ربط الإدراك الحسي بالجمال، وقال بأن الأساس الجمالي" يكمن في انسجام الفهم والمخيلة، بفضل حرية تحرك هذه الأخيرة، فضلاً عن ذلك أن العبقرية المبدعة للأفكار الفنية والتي بدونها قد لا يرى النور أي صنيع فني، تكمن هي نفسها في الانسجام بين الفهم والمخيلة، هذا الانسجام تفسره جميع الخواطر الجمالية"7 فانسجام العلاقة بين الفهم والمخيلة، يولد الإحساس والشعور بالجمال، وهذا بدوره يظهر لنا جميع الخواطر الجمالية. فتفرعت فكرة "كانت" (KANT) إلى عدة مصطلحات تدخل في هذا الموضوع مثل" علم الجمال البنيوي، وعلم الجمال اللغوي، وعلم الجمال الدلالي، وعلم الجمال الشكلي وعلم الجمال النفعي، وعلم الجمال الاجتماعي، وعلم النفس الجمالي"8. فانتشرت مفهوماته في الأدب والنقد، وسعى الباحثون إلى تأسيس منهج نقدي من علم الجمال يهدف إلى وضع ضوابط وقوانين تضبط مجالات الأدب، وذلك كله من أجل تحقيق المتعة الجمالية، التي يتم من خلالها تحقيق العمل الفني.

ثانياً- مفهوم المكان(لغة- اصطلاحاً):

لقد وظف الشعراء المكان في شعرهم منذ القدم، وهذا ما نلاحظه في الشعر الجاهلي، فقد كان عنصراً مهماً يشكل محورًا أساسيًا وجوهريًا في قصائدهم، فالمتصفح لتلك الشعر يجد أن معظم الشعراء أن لم نقل جلهم استعملوا المكان في قصائدهم؛ وذلك نتيجة لصلة الوثيقة التي تربط تلك الأمكنة بالإنسان بصفة عامة والشاعر بصفة خاصة، كما كان المكان تتعلق بتجربة الشعراء الحياتية والشعرية، فكان الشاعر العربي يصور لنا من خلال المكان واقعه الذي كان يعيشه، فتفاعل معه تفاعلًا نفسياً ودينيًا واجتماعيًا وثقافيًا. فماذا نعني بالمكان لغة واصطلاحاً؟

- لغة:

جاء في لسان العرب"لمكان الموضع والجمع أمكنة كقذال وأقذلة وأماكن. قال ثعلب: يبطل أن يكون مكاناً فعالاً؛ لأن العرب تقول: كن مكانك، وقم مكانك، واقعد مقعدك؛ فقد دل هذا على أنه مصدر من كان موضع منه، و(مكّن) له في الشيء: جعل له عليه سلطاناً"9، فأبن منظور عدّ لفظة (المكان) محتواةً في مادة (مكّن) الدالة على الموضع والجمع. ويذهب الزبيدي إلى أن المكان أوسع وأشمل، فهو عنده" الموضع الحاوي للشيء، وعند بعض المتكلمين أنه عرض وهو اجتماع جسمين حاوٍ ومحوي، وذلك ككون الجسم الحاوي محيطاً بالحموي"10.

لقد أعطى الزبيدي مفهوماً أوسع للمكان، بحيث عدّه الموضع الحاوي للأشياء والأجسام الموجودة والمتعلقة بهذا المكان. ويذهب الزمخشري إلى القول:" مكنته من الشيء وأمكنته منه فتمكن

منه و استمكن... و أما أمكنني الأمر فمعناه أمكنني من نفسه"11. فحين تذهب القواميس الأجنبية إلى كون المكان هو الفضاء؛ فهو في نظرهم" المكان الواسع الذي يجمع الأشياء، ويحضن حركة الكائنات"12، أنه العالم الأوسع الذي تتحرك فيه جميع الكائنات الحية بما فيها الإنسان، وتوجد فيه الأشياء التي تحيط بنا، وكذا الأفعال التي نقوم بها؛ فالإنسان يتفاعل مع الفضاء الموجود فيه. وهذا ما جعل المكان" مجالاً مفتوحاً للاجتهاد والتصورات المتعددة التي تصل إلى حد بلورة نظرية عامة"13.

والمكان أيضاً خاص ومشترك،" فالمكان الخاص هو الحيز الذي يشغله الجسم بمقداره، أو هو السطح الباطن من الجسم الحاوي للسطح الظاهر من الجسم المحوي أو هو حاوٍ للمتمكن مفارق له عند الحركة ومساوٍ له"14، فهو الحيز الذي يحتوي ويخترق الإنسان ويحضن وجوده؛ وذلك من خلال التفاعل الحاصل بين الطرفين، بين الحاضن والمحضون، بين الكائن والمكان؛ إذ أن كل عنصر منهما يتأثر بِفعل الآخر.

وفي الفلسفة الحديثة أخذ المكان مفهوماً خاصا فهو عند ايمانويل كانت (Immanuel Kant) مرتبط بالعقل؛ فالإنسان يخضع لتصور مسبق عن طبيعة المكان"15. لكن مجرد تصور مسبق لماهية المكان لا يكفي لإثبات كينونة المكان؛ فهو متناه ويدرك بوساطة الحواس، أما الحد الثاني" فهو يشكل امتدادا للحد الأول،بوصفه يتميز بالكينونة "16.

كما نجد كذلك أن المكان هو" المحل المحدد الذي يشغله الجسم. نقول: مكان فسيح ومكان ضيق وهو مرادف الامتداد"17.

وإذا انتقلنا إلى العمل الأدبي، نجد أن الذين تناول المكان في الإعمال، والنصوص الأدبية خلطوا بين مصطلحات ثلاثة:(الفضاء، والمكان، والحيز)، فقد يطلق المكان الروائي دون قيد أو تحديد ليدل على المكان داخل النص الأدبي، سواء أكان مكانا واحدا أم عدة أمكنة، أماحين يراد التمييز بين مصطلح المكان ومصطلح الفضاء فإن مفهوم المكان ينحصر في المكان المفرد ليس غير داخل النص الأدبي، بينما يدل الفضاء على مجموع الأمكنة التي تدخل في شبكة من العلاقات فيما بينها داخل النص، كما يشمل أيضا الإيقاع المنظم للحوادث. فالفضاء الدلالي مثلاً يرتبط بجغرافية المعنى وتحولاته التي لا حدود لها، فليس لِلتعبير الأدبي معنى واحد، فهو يتضاعف ويتعدد بناء على تنامي الصور المجازية والكنايات والإشارات؛ لذلك تحدث" جيرار جينيت" (GERAR GINIT) عن الفضاء الدلالي الذي" يتأسس بين المدلول المجازي والمدلول الحقيقي وهذا الفضاء من شأنه أن يلغي الوجود الوحيد للامتداد الخطي للخطاب"18. كما أن الأمكنة بالإضافة إلى اختلافها من حيث طابعها، ونوعية الأشياء التي توجد فيها تخضع في تشكلاتها أيضاً إلى مقياس آخر مرتبط بالاتساع، والضيق، أو الانفتاح، والانغلاق؛ لذلك نجد أن الحيز يختلف عن الفضاء؛ والسبب في ذلك هو أن الفضاء يحيل

بالضرورة إلى الخواء والفراغ، بينما الحيز يحيل إلى الحجم والشكل بما فيهما من وزن ومسافة، كما له" أبعاد مختلفة وأحجام قد يصعب تنظيرها لأنها تختلف طولاً وعرضاً ضيقاً واتساعاً علوا وانخفاضا وهكذا. لقد عاش الإنسان الأول في العراء فكانت الأرض والسماء كلتاهما على امتداد بصره الأفقي والرأسي حيزا مكانيا كان يتسع بحسب الرغبة والإرادة ويضيق على أساس منهما أيضا حين راح الإنسان الأول يحتمي في كهف في حضن جبل أو تجويف كثيب كثيف رمل أو فجوة في مغارة أو ما إلى ذلك من أحياز مكانية نستطيع أن نقول عنها أنها هي التي شدته إلى أن يكون بل ويظل مخلوقا له جاذبيته بالمكان"19.

- اصطلاحاً:

ظهرت أهمية المكان عند كثير من الباحثين القدماء والمحدثين، وذلك لارتباطه بالإنسان من جهة ووجوده في العديد من المجالات والميادين المعرفية والعلمية من جهة أخرى. ويعد الفيلسوف اليوناني (أفلاطون) (Platon) أول من صرح به اصطلاحياً، وهذا ما ذهب إليه حسن مجيد الربيعي إلى أن" أول استعمال اصطلاحي للمكان في الفلسفة قد صرح به أفلاطون، إذ عده حاوياً وقابلاً للشيء"20. كما يتفق أرسطو مع أفلاطون في التصور العام للمكان من حيث الوجود والكينونة فالمكان عنده" موجود ما دمنا نشغله ونتحيز فيه، وكذلك يمكن إدراكه عن طريق الحركة والتي أبرزها حركة النقلة من مكان إلى آخر، وهو مفارق للأجسام الممكنة فيه وسابق عليها ولا يفسد بفسادها"21. فالمكان مرتبط بما هو ملموس وحسي؛ أي مادي لا يتغير بتغير الأجسام، والأشياء المجود، فهو وليد الإحساس، والحسية" هي سمة الصور الذهنية للمكان لدى الإنسان البدائي، هي صور مظاهر محسوسة تشير إلى أماكن، أو مواقع لها خصائص عاطفية"22.

أما في الفلسفة الحديثة والمعاصرة، فقد شغل مفهوم المكان اهتمام الكثير من الفلاسفة، ويعد ديكارت (Descartes) من أبرزهم، حيث يذهب إلى أن المكان" هو ماهية الأشياء ذاتها وجوهرها المادي فامتداد المادة وتحيزها ليس عرضا طارئا عليها، بل هو صورتها و ماهيتها، فالمكان إذا جوهر و ليس في الكون خلاء"23.

لقد اعتبر ديكارت (Descartes) المكان طبيعة ومادة الأشياء، وهو جوهرها وأصلها، ولا يمكن أن يكون هو الخلاء، فهو واقعي تدخل فيه الأشياء الداخلية والخارجية.

غير أن هناك من ربطه بالجانب الداخلي، وقال بأنه خالي من أي خلط خارجي، ومن هؤلاء" برغسون"(Bergson) وهو عنده" وسط متجانس وخال من أي تنوع في الكيف، والأشياء الحالة في مكان تؤلف كثرة مرصوصة متمايزة و خالية من أي تداخل، بحيث يستطيع أن نضع بينها فواصل وأن نعدها، ونحدد مقدارها. فإذا ما تسربت فكرة الوسط المتجانس إلى مجال الشعور الخالص،

وأقحم المكان في الديمومة المحضة لم تعد ثمة ديمومة حقيقية، وإنما تصبح مزيج من فكرتي الزمان والمكان، يصح أن نسميها الزمان- المكان"24.

إن دمج وإقحام المكان في الجانب الشعوري فقط ليس صحيح؛ لأن المكان يمكن أن يكون في النفس وخارج النفس؛ أي في العالم الخارجي الذي يشمل كل شيء، يشمل كل ما هو مادي وغير مادي.

من هنا كان المكان نوعين: مكان نفسي ومكان مثالي" فالمكان النفسي هو الذي ندركه بحواسنا، مكان نسبي لا ينفصل عن الجسم المتمكن على حين أن المكان المثالي الذي ندركه بعقولنا مكان رياضي مجرد ومطلق"25.

يبدو من خلال هذا لكلام أننا بين نوعين من المكان، مكان مرتبط بالنفس؛ أي بالشعور والإحساس يخص النفيسة وحدها، والآخر مكان مثالي يتمركز في عقولنا يتمثل في الأشكال الهندسية التي نتصورها بعقولنا.

لقد أعطت هذه النظريات دفعا جديدا للفكر الإنساني، وتصور جديد للمكان، وذلك من خلال المعارف المتحصل عليها من جراء تلك النظريات، فقد أصبح فهم المكان بمنظور واسع ومتطور، أخرج المكان من الدائرة الضيقة والتقليدية إلى نظرة واعية وواسعة، تمثلت في ظهور تفاسير ومفاهيم جديدة للمكان أكسبته أبعاداً فكرية وجمالية. كما أقر فلاسفة العرب بوجود المكان، حيث اعتبروه" الفراغ المتوهم الذي يشغله الجسم وينفذ فيه أبعاده، ويرادف الحيز"26. وقد فرق" حسن بحراوي" بين أمكنة الانتقال وأمكنة الإقامة" أما أماكن الانتقال فتكون مسرحاً لحركة الشخصيات وتنقلاتها، وتمثل الفضاءات التي تجد فيها الشخصيات نفسها كلما غادرت أماكن إقامتها الثابتة، مثل: الشوارع والأحياء والمحطات وأماكن لقاء الناس خارج بيوتهم كالمحلات والمقاهي، وذلك بناء على قاعدة الاشتقاق، يشتق من التعارض الأصلي الأول انتقال إقامة تقاطبات فرعية مشتقة، حيث يولد من أمكنة الإقامة تقاطبات بين أماكن الإقامة الاختيارية وأماكن الإقامة الإجبارية مثل: المنزل مقابل السجن وتقاطبات أخرى بين أماكن الإقامة الراقية مثل: القصور، الفيلات الأكواخ مدن"27.

إذن فحسن بحراوي يذهب إلى أنه يوجد نوعان من الأماكن، فهناك أماكن للإقامة (اختيارية إجبارية) وأماكن للانتقال، مثل الشارع، والمحطات والمقاهي... الخ. فقيمة المكان – بالنسبة للإنسان– لا تكمن في كونه مسكن يأوي إليه فحسب بل تتعد إلى أمور كثيرة توصلنا إلى مفاهيم أساسية في العلاقات المختلفة مع محتويات المكان و أثرها في الوصول إلى مفاهيم و مستويات تختلف من حضارة لأخرى.

ثالثاً - الأبعاد الجمالية للمكان في الشعر الجاهلي:

- البعد الاجتماعي:

لقد اهتم العرب منذ فجر التاريخ بالشعر حتى أصبحت صنعة الشعر ميزة يمتاز بها الشاعر الجاهلي ويعلو شأنه ومكانته في وسط قومه، وقلما تجد بين العرب باختلاف مشاربهم من لا يهتم للشعر أو الشعراء. إن الشعر بالنسبة للعرب- فضلاً عن أنه فن يستمتع به الهاوي- فقد كان وسيلة من الوسائل التي يعرف بها أحوال العرب وأخبارهم، وتاريخهم وأنسابهم. فبرع الشعراء في العصر الجاهلي في نقل مظاهر الحياة الصحراوية وأخرجوا لنا لوحة تعكس الواقع الذي كانوا يعيشونه. فالشاعر ابن بيئته، وما كان شعره إلا تصويراً لتلك البيئة وما تحتويه من عناصر الطبيعة المتاحة إليه. فنظر شعراء العصر الجاهلي إلى البيئة نظرة حميمية، وتحدثوا عن صفاتها الحسية وخصائصها الجمالية التي تنعكس إيجاباً على المجتمع والفرد. يقول الأعشى:

" إِذَا رَوَّحَ الرَّاعِي اللِّقَاحَ مُعَجَّلاً وَأَمْسَتْ عَلَى آفَاقِهَا غَبَرَاتُهَا
أَهَنَّا لَهَا أَمْوَالَنَا عِنْدَ حَقِّهَا وَعَزَّتْ بِهَا أَعْرَاضُنَا لَا نُفَاتُهَا
ودَارِ حِفَاظٍ قَدْ حَلَلْنَا مَخُوفَةَ سُرَاةً قَلِيلٍ رِعْيُهَا وَنَبَاتُهَا"28.

الشاعر يصور لنا حالة الصحراء في أيام القحط والجدب مفتخراً بقومه، حيث تجدهم في هذا الأيام ينحرون الإبل لإطعام الضيوف والفقراء، فهم يبذلون معروفهم ويقيمون في دارهم لا يبرحونها على الرغم من قلة نباتها وشح مرعاها ولكنه الحسب الذي يتحتم الصبر عليه على الرغم من المكاره. هكذا كانت العرب في الحياة الجاهلية" تحتال في تخليدها بأن تعتمد في ذلك على الشعور وكان ذلك هو ديوانها"29. فحين تلوح السنة الشديدة في الأفق حاملة معها القحط والجهد والبلاء فبيوتهم ملاذ لكل ذي حاجة يأوي إليها سوا ء كان فقيراً، أم صعلوكاً، أم مطروداً أم بغيره لأنهم سادة أشراف لا يستباح لهم حمى، ولا تخفر لهم ذمة مما يعني أن دلالة الكرم تسموا وترتفع عندهم لتحمل معاني الشرف والكرم.

هكذا كانت الإقامة في هذا المكان دليلا على الشرف فضلا عن القوة؛ فكان الاقتدار على الإقامة فيها دليلا على قدرة أصحابها على العيش فيها، ودليلا على تعلقهم بها. ويقول أيضا في وصف الحالة الاجتماعية التي كان العرب يعيشها في البيئة الصحراوية:

" تَبِيتُونَ فِي اَلْمشتَى مِلَاءً بُطُونُكُمْ وَجارَاتكم غَرْثَى يَبِتْن خَمَائِصَا
يُرَاقِبْنَ مِنْ جُوعٍ خِلَالَ مَخَافةٍ نُجُومَ السَّمَاءِ الطَّالِعَاتِ الشَّوَاخِصَا"30.

الشاعر في هذه الأبيات يهجو أناس يبتون في بيوتهم في فصل الشتاء البارد وبطونهم ملاء لا يبالون بجارتهم الذين يبتون جوعي فارغات البطون.

ومن المعاني القيمية الأخرى التي دلت عليها البيئة الصحراوية معنى العدد والكثرة الذي يَعد أهم مظاهراً من مظاهر القوة في ذلك الزمن وكأن الدار امتداد لصاحبها في المكان والزمان معا،وكلما قويت الدار واشتد ركنها كان ركن صاحبها متيناً. يقول زهير بن أبي سلمى:

" أَلا أَبلِغْ لَدَيكَ بَنِي تَمِيمٍ وقد يأتيكَ بالخَبَرِ الظُّنونُ
بأَنَّ بُيُوتَنَا بمَحَلِ حَجْرٍ بكلِّ قَرارَةَ، منها، نكُونُ
إلى قَلهَى تكُونُ الدّارُ، منا، إلى أَكنافِ دُومَةَ فالجَوُنُ"31.

فالامتداد المكاني يعني بالضرورة كثرة في العدد وهو ما يستلزم القوة والمنعة التي تردع الخصوم وتكف أطماع الطامعين وبها يحافظ الإنسان على شرفه ووجوده في بيئة شريعتها الأولى هي القوة التي كانت هي الأساس في الحياة الجاهلية، بل إن ذاك المبدأ يشكل جوهر الفخر القبلي.

لكن القوة والشرف ليست الصفات الوحيدة التي كانت منتشرة في الحياة الاجتماعية في تلك الفترة، بل كان هناك الكرم إلي يتميز به الكريم حين يحل الجدب ويشتد الحال، فكان الكرم معيار اجتماعي، ومبدأ يتميز به الإنسان الجاهلي.

ولذلك كان معيار الكرم في تلك الظروف أن يكثر ذوو الحاجات حول بيوت الكرماء فتعرف تلك البيوت بكثرة الداخلين والخارجين ويصبح ذلك من أبرز ما يمكن أن يمدح به المرء.يقول زهير بن ابي سلمى:

" فأصبحتُما منها على خيرِ مَوْطِنٍ سبيلُكُما فيه وإنْ أحزَنُوا سَهْلُ
إذا السَّنةُ الشَّهْباءُ بالنّاسِ أَجحَفَتْ ونالَ كِرام المالِ، في الحَجرةِ الأَكلُ
رأيتُ ذوي الحاجاتِ حولَ بيوتِهم قطِيناً بها، حتَّى إذا نَبتَ البَقلُ
هُنالكَ، إنْ يستبخلوا المالَ يُخبلوا وإنْ يُسألُّوا يُعطُوا، وان يَيسِرُوا يُغلُوا"32

فحين يجتاح الجدب الحياة ولا يجد الناس ما يأكلونه فيعمد كرماؤهم إلى كرائم أموالهم يستأثرون بها لأنفسهم،" فهم متكافلون في كل حال، ينصر الواحد منهم أخاه ظالماً أو مظلوما"33، عندئذ تتميز بيوت ممدوحي زهير عن غيرها فتغدو مقصداً يكتنفه ذوو الحاجات يتحلقون حوله فلا يبرحون أماكنهم فلا تكاد تميزهم عن أهل البيت.وكلما تبنى الإنسان القيم التي تقدسها الجماعة ارتفع بيته معنوياً ودل على شرفه وسيادته فيغدو مطمحا يسمو إليه الصغير والكبير.لذلك كانت حياة العربي في العصر الجاهلي دائمة التنقل ولترحال بحثاً عن الأماكن التي يرتاحون فيها.

- البعد النفسي:

الشاعر ابن بيئته وما كان شعره إلا تصويراً لتلك البيئة وما تحتويه من عناصر الطبيعة، إذ صور لنا بيئته من خلال وصف الأماكن التي كان يعيش فيها، وما تحتويه من أودية وأنهار، فالكثير من

الشعراء الجاهليين ذهبوا إلى الوقوف على الأطلال وما تركته من أثار في نفوسهم. لذا كان للمكان أبعاداً، ودلالات نفسية تؤثر في الذات البشرية سلباً وإيجاباً، وفقا لما يثيره هذا العنصر من مشاعر وأحاسيس؛ فهو المرآة العاكسة لذات الإنسانية من أفعال وأقوال، أتخذ منه الشاعر ملاذاً للحرية والسكينة عاش فيه، وخلف فيه ذكريات وحوادث، كان يستذكرها كلما عاد ورجع إليه. يقول امرؤ ألقيس:

لَيَالٍ بِذَاتِ الطَّلْـحِ عِنْدَ مُـحَجَّرٍ أَحَبُّ إِلَيْنَـا مِنْ لَيَـالٍ عَلَى أُقُرْ
أُغَادِي الصُّبُوحَ عِنْدَ هِرٍ وَفَرْتَنَى وَلِيدًا وَهَلْ أَفْنَى شَبَابِي غَيْرَ هِر34.

فهذه المكان يعيد لشاعر ذكرياته، وأيامه التي كان يقضيها فيه، فقد ملك قلبه واستحوذ عليه فوجد الشاعر فيه متنفساً يفرغ فيه مشاعره الملتهبة والهائمة، فالليل التي قضاها الشاعر بذات الطلح هي أحب إلى نفسه من الليل التي قضاها في أقر، فأعطي المكان فعلية كبيرة بين الشاعر وتجربته التي عاشها في هذا الموضع. فأظهر ذلك مدى التوحد النفسي والروحي بين الشاعر و المكان.

فرؤية الشاعر هنا تظهر لنا في هذا النص برؤية المحب المعجب بهذا المكان. فشخص لنا الشاعر الطبيعة وأضفى" مضموناً إنسانيا ليربط بينها وبين واقعه النفسي وأحاسيسه الخاصة، ويرى فيها ذاتاً تنبض بالحياة وتتجاوب معه وبهذا العمل يحاول الشاعر استكشاف عالمه الداخلي"35.

وها هو في موضعٍ أخرى يصف لنا المكان، ومل له من قدرة على التحكم في حالته النفسية؛ فنفسيته تتسع وترتاح عندم يكون المكان واسع وتضيق عندم يكون المكان ضيق. يقول أمرؤ ألقيس في ذلك:

ثَجَّ حَتَّى ضَـاقَ عَنْ آذِيِّهِ عَرْضُ خَيْـمٍ فُفَافٍ فَيُسْرْ
قَدْ غَـدَا يَحْمِلُنِي فِي أَنْقِهِ لَاحِقُ الإِطْلَيْنِ مَحْبُوكٌ مُمِرْ36.

فتلك الأماكن جعلته يخرج ويستمتع في أراضيها الخصبة بعدما كانت ضيقة بسبب المطر الغزير الذي كان يسقط فيها فخرج بعد توقفه ليجول فيها مستمتعاً باخضرارها، وخصوبتها، معبراً فيها عن الحياة والمشاعر التي يختزنها في نفسه، فلم يجد غير هذه الأماكن لاستثارة وجدانه ليحمل دلالات عميقة بما يفيض به هذا القلب من مشاعر وأحاسيس متداخلة لتأخذ بذلك " دلالتها من السياق المشحون بشعور الشاعر وعواطفه"37.لذا كانت طبيعة الحياة وظروفها التي عاشها أمرئ ألقيس مصدراً مهماً من مصادر تكرار التجربة وإعادة الحياة فيها، وفي هذا المعنى يقول:

"قفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ بِسَقْطِ اللِّوَى بَيْن الدّخُول فَحَوْمَلِ
فَتُوضِحَ فَالمِقْرَاةِ لم يَعْفُ رَسْمُها لِمَـا نَسَجَتْها من جَنُوبٍ وَشَمْأَلِ
تَرَى بَعَرَ الأَرْآم في عَرَصَـاتِهَا وقِيعـــــــانِها كأنه حبُّ فُلْفُلِ

كَأَنِّي غَدَاة البَيْن يَوْمَ تَحَمَّلُـــوا لَدَى سَمُرَاتِ الحَيِّ ناقفُ حَنْظَلِ
وُقُوفًا بِهـا صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ يقولُـــونَ لاَ تَهْلِكْ أَسًى وَتَجَمَّلِ
وإِنَّ شِفَـــائِي عَبْرَةٌ إِنْ مُهَرَقَة فهَلْ عِند رَسْمٍ دَارِسٍ مِنْ مُعَوَّلِ"38.

فالشاعر في هذه الأبيات يصور لنا ويحكى تجربته مخاطباً صاحبيه كانا يسيران معه طالباً منهما الوقوف والبكاء معه عند تذكر حبيباً فارقه ومنزلاً خرج منه، وذلك من خلال موضعيين (الدخول، وحومل). فلم يمح آثرها؛ لأنها كلما غطتها رياح الجنوب بالتراب، كشفته رياح الشمال عنها، هذه حالة تركت في نفسية الشاعر حوادث كان لها الأثر الواضح على أحاسيسه ومشاعره، مما جعله يعيش الذكري، يسترجع من خلالها حالته الوجدانية الغابرة في كل مكان مر به، فعوالمه متنوعة غنية بالمشاهد و الصور المحركة للأحاسيس، وهذا ما جعله يستحضر الماضي ليعيش في وسط الحاضر؛ أي يعيش بين الخيال والواقع، هذه الصورة التي عبرة عن نفسية الشاعر من خلال استدعاء الماضي من" مخزون ذاكرته، بحيث تشكل هذه في النهاية معادلا مساوقا لتجربته الشعرية"39.هذا التغير في المكان أدى إلى تغير نفسية وحالة الشاعر؛ أي أن حلة الشاعر تغيرت وفق ما يمليه العالم الخارجي على طبيعة العالم الداخلي (الذات) يصنع العالم، فالمكان الخارجي طغى على (الأنا) الشاعرة، وحاصرها، فتحول بذلك العالم الداخلي إلى حقيقة معاشة. فقد صنعت ذات الشاعر من خلال المكان والتفاعل معه لذة بالإحساس والشعور الداخلي ارتبطت معه لحظة التذكر ما كان فيه من أيام وحياة في هذا المكان، فأسقط بذلك الحواجز الصلبة بين الذات والوجود، وأصبحت حياة الشاعر التي لا يمكن أن يتخلى عنها متضامنة مع المكان ومرتبط به في الماضي والحاضر، هذا الترابط جعل قلب الشاعر نابضاً بالحياة، وذلك من خلال ما استعاده من ذكريات جميلة. لذا نجد أن الإنسان العربي اتصل مع " بيئته القاسية بالطبيعة اتصالاً مباشراً لا يحجبها عنه ستار بل تعامل معها فيما يقيم حياته، وفيما يزنها في عينيه"40.

فكانت البيئة المكانية حاضرة في حياة الشاعر وشعره بكل ما تحمله من إشارات وعلامات تفسر حضور المكان في شعر الشاعر الجاهلي، وهذا ما نجده عند الكثير من الشعراء الجاهليين. يقول عبيد الأبرص:

" يادرَ هِنْدٍ عِفَاها كُلُّ هَطّالِ بِالجَوّ مِثْلَ سَحِيقِ اليُمْنَةِ البَالي
جَرَتْ علَيها الصّيفِ فاطّرَدتْ والرّيحُ فِيها تُعَفّيها بِأَذْيَـال
حَبَسْتُ فيها صِحابي كَيْ أُسائِلَها والدَّمْعُ قَد بَلَّ منّي جَيبَ سِرْبالي
شَوْقاً إلى الحَيّ أيّامَ الجَميعُ بِهَا وَكَيفَ يَطْرَبُ أوْ يَشْتَاقُ أمْثَالي"41.

يقف الشاعر على ديار الأحبة ويستذكر ما كان فيها من شوق وحنان، فتلك الديار تذكره بمحبوبته هند والأيام التي كان يقضيها معها في هذه الديار التي تغيرت وزالت بفعل الأمطار الغزيرة، والرياح. هذه التغيرات وما آلت إليه تلك الديار من خراب أثرت في نفسية الشاعر، وجعلت حالته تتغير نتيجة لما يفتقده من حناناً وشوقاً كان فيها، وكذا بفعل الاستجابة التي أثرت في جانبه" الشعوري وإحساسه الداخلي وانفعاله الخاص"42. فالتجربة الشعورية- بما تحمله من حزن أو فرح أو تشاؤم أوتفاؤل- توجه رؤية الشاعر للبيئة التي يعيش فيها وتجعلها مرآة تعكس شعور الشاعر وأحاسيسه تجاه الحياة وملابساتها.

- البعد الفني:

نقل الشاعر الجاهلي صورة الصحراء المترامية الأطراف من مستواها الواقعي إلى مستوى متخيل، فاستبدل كل ما هو واقعي بصور خيالية زادت من المتعة الفنية للمشهد، فوظف الصحراء مثلاً كاستجابة نفسية لحاله، كي يغالب جانب القحط والجفاف، وهو ما يعد شكلاً من أشكال مقاومة الطبيعة والتغلب على قسوتها، والشاعر في مثل هذا بنضجه الطبيعي يرسم صور عن المكان جاء في سياق شعره، فدل من خلاله على الشجاعة والإقدام، ومواجهة اقتحام المهالك في تلك البيئة.

والحديث عن حضور الصورة في المكان، يشير إلى حضورها بوصفها رمزاً يمثل حاضره وماضيه مشكلاً من خلالها وسيلة للكشف عن واقعه بكل ما يحمله من مظاهر وأشكال الحياة. يقول أمرؤ ألقيس:

" أَلا عِمْ صَبَـاحًـا أَيُّهَا الطَّلَلُ البَـالي وَهَلْ يَعِمْنَ مَن كَان في العَصْرِ الخَالِي
وَهَـلْ يَـــعِمْنْ إلّا سَعيـــدٌ مُخَلَّدٌ قَلِيـــلُ الهُمُـومِ مَـا يَبِيتُ بِأَوْجَـــالِ
وَهَـلْ يَعِمْنْ مَنْ كَـان أَحْدَثُ عَهْدِهِ ثَلَاثيـــنَ شَهرًا في ثَلَاثَـةِ أَحْـوَال
دِيَـارٌ لِسَلْمَى عَـافِيَاتٌ بِذِي خَـالِ أَلَحّ عَلَيْهَـــا كُـلُّ أَسْـحَمَ هطّـــالِ"43.

ينتقل الشاعر في هذه الأبيات من الصورة الحسية للمكان إلى الصورة الخيالية للمكان؛ فالطلل ليس شخص حتى يحيه الشاعر، فخاطبه كأنه يخاطب إنسان (أَلا عِمْ صَبَـاحًـا أَيُّهَا الطَّلَلُ) فشبه بذلك الطلل(المكان) بالإنسان، فالتحية لا تكون إلا بين شخص وشخصاً أخر وليس الطلل؛ فالشعور المنبثقة من أعماق الذات الباحثة عن الخلود في رحلة العبور إلى الحياة، أو الذات المجابهة للحياة في واقعية العيش في قلب المكان هي التي تشكلت معالم الصورة لدى الشاعر، وجعلتها نسيجا ملتحما في جسد القصيدة، فحين تقف على هذا المشهد التصويري الفني للطلل تجد أن الصورة التي أستوحاها الشاعر من خياله وأسقطها على المكان (الطلل) شكلت وأظهرت مدى تلاحم الشاعر بالمكان، فأحدث بذلك التكافؤ الوجداني بين النفس الإنسانية والمكان المتعلق بها. فكما " تتخالف

أشجان الذكريات من حيث البواعث والمواقف وظواهر السلوك، فكذلك تتخالف القدرات الإبداعية في تصويرها لما تثيره مناظر الأطلال من انفعالات في النفس"44.

فالصورة وإن كانت في غالبها مفردة ينتظمها بيت واحد، أو مجموعة قليلة من الأبيات إلا أنها ستلتحم مع النص،فتقع موقعا متزنا في ثنايا القصيدة،وهذا التموقع المنتظم يعطيها نوعا من الاستقرار المطلوب لإثبات وحدة البناء في القصيدة العربية، القصيدة عبر هذا المشهد الطلل.فقدرة الشاعر على التخيل وصناعة الصورة، توحي وتدل عل حقيقة مشاعر وأحاسيس الشاعر عند وقوفه على تلك الأمكنة.ويقول أيضاً:

" لِـمَنْ طَلَلٌ أَبْصَرْتُهُ فَشَجَـانِي كَخَطِّ زَبُورٍ فِي عَسِيبِ يَمَـانِ
دِيَـارٌ لِهِنْدٍ والرَّبَـابِ وَفَرْتَنَى لَيَالِينَـا بِالنَّـعْفِ مِنْ بَـــدَلَانِ"45.

يقف أمرؤ ألقيس في هذه الأبيات سائلاً متجاهلاً عن الصورة التي أضحى عليها المكان وأصبح فيها أثار ورسمات، فراح يشبهه – في هذه الصورة - بالخط الذي يكتبه الرجل اليماني على جريدة النخل، فما بقي من أثار أبصرها الشاعر ببصره في تلك المكان أثار أحزانه وحرك مخيلته، فأعاد رسم المشهد في شكل صورة فنية شكل من خلالها تجربته الشعرية.

فالمقدمة الطللية لم تعد مجرد أداة فنية موجهة إلى العالم الخارجي فحسب، وإنما هي" تعبير يجسم ارتداد الشاعر إلى نفسه وخلوه إليها"46. يقول أمرؤ القيس مصوراً المكان وما حل به من تغيرات:

تَرَى بَعَرَ الأَرْآمِ في عَرَصَـاتِهَا وقِيعـــــــانِها كأنه حبُّ فُلْفُلِ
كَأَنِّي غَدَاةَ البَيْنِ يَوْمَ تَحَمَّلُـــوا لَدَى سَمُرَاتِ الحَيِّ ناقفُ حَنْظَلِ47.

يصور الشاعر لنا في هذا المشهد المكاني صورة المكان والديار التي أضحت باقي وأثار بعد هجران أهلها لها، فالشاعر أعاد بناء صورة المكان بعد وقوفه عليه، ليشكل من خلال علامات تلك المكان وما بقي منه من آثار(عرصاتها، قيعانها حب فلفل، ناقف حنظل) عناصر الصورة الشعرية للمكان، رسم الشاعر من خلالها مشهداً شكل صورة كلية لحالة المكان، حيث انتقل الشاعر من الصورة الحسية العينية إلى الصورة المعنوية الخيالية، ويظهر ذلك من خلال تشبيه أمرؤ القيس بقايا الحيوانات في تلك الديار(وقِيـانِها كأنه حبُّ فُلْفُلِ) فقيعانها لم تكن حب فالفل بل شبه بعر الظباء المتناثر في وسطها بحب فلفل هندي، ثم ينتقل الشاعر في البيت ليصف ويصور حالة وقفته التي ملائتها الحيرة والدهشة(ناقفُ حَنْظَلِ) فهي مثل جاني الحنظل في استخراج حبتها. ويقول النابغة الذبياني واصفاً ما في الطبيعة من نبات وحيوان ومصوراً ذلك في لوحة رسمها و نسجها من واقعه:

فأفْرَعَ في الرُّبابِ يَقُودُ بُلْقاً مُجَوَّفَةً تَذُبُّ عنِ السَّخالِ

وأصبح راسياً برضام دهر وسالَ بهِ الخَمائِلُ في الرِمالِ48.

فكان الشاعر الجاهلي يعيش بين مكانين: مكان واقعي مادي ملموس، ومكان خيالي، وهو جزء مما يشعر به الشاعر وما يتخيله، فهو مكان نفسي صاغه الشاعر بألفاظ دالة وليس مكان مستقل بذاته؛ بل هو صورة ورسمها الشاعر، كقول الأبرص:

لَيْسَ رَسْمٌ عَلى الدَّفِينِ بِبالي فَلوَى ذِرْوَةٍ فَجَنْبي أُثالِ

فالمَرْوَرَاةُ فالصَّفيحَة قَفْرٌ كُلُّ وَادٍ وَرَوْضَة مِحْلالِ

دَارحَيّ أَصابَهُمْ سالِفُ الدَّهْرِ فأَضْحَتْ دِيارُهُمْ كالخِلالِ 49.

الشاعر يعتمد في هذا المشهد على الحاسة البصرية في نقل الصورة، وهذا جزء من المكون الحسي في صورة الشعر الجاهلي، وهو ما سعى إليه الشاعر في جعل المكان ينسجم مع الصورة المتخيلة.

لذلك يظل الحديث عن حضور الصورة في المكان يشير إلى حضورها بوصفه رمزاً ومثالاً مستقراً وسط نفسية الشاعر، فالمكان في الشعر الجاهلي يتجاوز في كونه منطقة جغرافية فحسب، فهو صورة حية نقل بها الشاعر الجاهلي كل ما عاشه في تلك الأماكن سواء كانت جبال أم صحاري.

الخلاصة:

يتضح لنا أن البيئة المكانية في العصر الجاهلي قد أثرت بشكل كبير في حياة الشعراء، حيث وصفوها وصوروها في أحسن المشاهد والصور " فوصفوا وحوشها الضاربة، وذئابها العاوية وظبائها السارحة وحمارها القارحة، كما وصفوا جوارح السماء، وخشاش الأرض وهوامها، ثم وصفوا الرسوم والأطلال، والسهول والجبال والأنواء والأمطار والعيون والآبار والبرق والرعد والأفلاك والكواكب، ولم ينسوا أن يصفوا حياتهم في جدهم ولهوهم وظعنهم وإقامتهم وسلمهم وحربهم، وأن يصفوا أدوات الحرب كالسيف والرمح والقوس والسهم، وشأنهم في الحضر هو شأنهم في البادية، ووصفوا النبات والأزهار والحدائق والأثمار والخمر ومجالس الشراب، ومجالس اللهو ومحافل الميسر. وعلى الجملة لم يتركوا في قراهم ومدنهم منظراً إلا رسموه. كما أجاد الشاعر توظيف الصورة البيانية ليصل إلى إبراز، وأقصى درجة للجمال، حيث زادت هذه الصورة في جمال المكان، و ذلك من خلال ما أضافه الشاعر من صفات أخرى أسهمت في رسم صورة المكان، فكانت العلاقة بينهما قائمة على شد وجذب جسد الشاعر من خلالها عالماً مليئاً بالحيوية والحياة، وإن كان الزمن توقف عند المكان فإن حركته مستمرة عند الشاعر.

الهوامش والمراجع والمصادر :

1 ابن منظور: لسان العرب، الجزء (3-4) مادة (ث. ج. ح)، دار صادر، بيروت، لبنان، ط 4، 2004، ص 202.

2 ابن منظور: لسان العرب، الجزء (3-4) مادة (ث. ج. ح)، ص 202.

3 أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ :القيان،، تحقيق عمر أبو النصر، مطبعة النجوى، بيروت، لبنان، 1969، ص 81

4 عبد العزيز الدسوقي: نحو علم جمال عربي، مجلة الفكر، المجلد التاسع، العدد2، الكويت، 1978،ص، 28،27.

5 ابن طباطبا: عيار الشعر، تحقق: محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، الإسكندرية،1980،ص، 28.

6 هيجل: فكرة الجمال، تر جورج الطرابيشي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1981 2م، ج 1ص.37/38

7 دني هوجمن: علم الجمال، تر ظافر الحسن، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1975م، ص 61

8 عبد المنعم الحنفي : موسوعة علم النفس و التحليل النفسي، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر، 1978،ج1، ص، 288.

9 بن منظور: لسان العرب، مج6 ج48، مادة (مكّن)، ص 4250.

10 السيد مرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس مادة (مكن)، مج 9، دار صادر بيروت، (د.ط)، 1966.

11 الزمخشري: أساس البلاغة، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان- ج2،ط1، 1998،ص223.

12 Dictionnaire Hachette encyclopédique. Atlas mondial، 1994, p. 555.

13 يقطين سعيد، قال الراوي، البنيات الحكائية في السيرة الشعبية، المركز الثقافي العربي، البيضاء، ط 1، 1997م، ص 238.

14 مراد وهبة : المعجم الفلسفي، 1979، دار الثقافة الجديدة القاهرة، ط3، ص 421.

15 عبد الرحمن بدوي :موسوعة الفلسفة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت،ج2،ط 1، 1984، 1984،ص240.

16 منصور الديلمي: مجلة العدد العاشر،ص20.

17 جميل صليبا : المعجم الفلسفي، دط، دار الكتاب اللبناني ج2، 1982، ص421.

18 G.Genette, Figures II, seuil, 1976, p : 46-47.

19 مجموعة من الباحثين (أحمد الطاهر حسين، أحمد غنيم، حازم شحاتة، مدحت الجبار، محمود البطل، نجوجي واثيو نحو، سيزقاسم، يويلوتمان): جماليات المكان، الناشر، عيون المقالات، الدار البيضاء،ط1988،2، ص5.

20 العبيدي، حسن مجيد، نظرية المكان في فلسفة ابن سينا، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط 1، 1998، ص9.

21 أرسطو طاليس : الطبيعة، ت إسحق بن حنين، ت ح عبد الرحمن بدوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1994، ط2، ص 281.

22 حنان محمد موسى: الزمكانية و بنية الشعر المعاصر(أحمد عبد المعطي، حجازي نموذجا)، جدار للكتاب العالمي عمان، الأردن، ط1، 2006، ص 18.

23 محمد يعقوبي: الوجيز في الفلسفة، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، ط03، د.ت، ص 350.

24 مصطفى غالب: في سبيل موسوعة فلسفية، منشورات، دار الهلال، بيروت، لبنان، د.ط، 2000، ص 96.

25 جميل صليبا: المعجم الفلسفي،ص413.

26 جميل صليبا: المعجم الفلسفي،ص 412.

27 محمد بوعزة: تحليل النص السردي (تقنيات ومفاهيم)،ص104.

28 عبد الحميد المحادين :جدلية المكان والزمان والإنسان في الرواية الخليجية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 2001،1،ص20.

29 محمد حسين: ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس، الناشر مكتبة الآداب بالجماميزت، دط، 1940،ص87.

30 أبو عثمان بن بحر الجاحظ: الحيوان، تحقيق : يحي الشامي، دار الهلال – بيروت- 1986،ج1، ص71.

31 محمد حسين: ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس،ص149.

علي حسن فاعور: ديوان زهير بن أبي سلمى، دار الكتب العلنية، بيروت – لبنان- ط1، 1988، ص126.

32 علي حسن فاعور: ديوان زهير بن أبي سلمى ص 86.

33 فن المديح و تطوره في الشعر العربي – تأليف أحمد أبو حاقة – القاهرة – دار الشروق ط1، 1964، ص1.

34 عبد الرحمان المصطاوي: ديوان امرؤ القيس، ص99.

35 عبد الرحمن عرفان: الشعر الحديث في اليمن ظواهره الفنية وخصائصه المعنوية، جامعة بغداد، دط1، 1996، ص141.

36 عبد الرحمان المصطاوي: ديوان امرؤ القيس، ص103.

37 عبدالكريم أسعد قحطان: الصورة في شعر لطفي جعفر أمان، دار الثقافة الشارقة، ط1، 2002، ص38.

38 ديوان امرؤ القيس، دار صادر – بيروت- دط، دت، ص (29- 30).

39 علي الغريب محمد الشناوي، الصورة الشعرية عند الأعمى التُطيلي، ط1،مكتبة الآداب- القاهرة- 2003، ص 59.

40 حسين ناصر: في الشعر العربي، الناشر: مكتبة الثقافة الدينية– القاهرة- ط1، 2001،ص222.

41 محمد عبد الرحيم: ديوان عبيد الأبرص، دار الراتب الجامعية، - لبنان – ط1، 2008، ص (97- 98).

42 مصطفى السيوفي: الإبداع الشعري بين النظري والتطبيقي، الدار الدولية للاستثمارات الثقافية – مصر- ط1،2011،ص9.

43 عبد الرحمان المصطاوي: ديوان امرؤ القيس،ص135

44 محمد عبد الواحد حجازي: الأطلال في الشعر العربي (دراسة جمالية)، دار الوفاء للطباعة والنشر – مصر- ط2002،1، ص192.

45 عبد الرحمان المصطاوي: ديوان امرؤ القيس،ص158.

46 عاطف أحمد: قراءة النص الشعري الجاهلي في ضوء نظرية التأويل، عالم الكتاب الحديث للنشر والتوزيع- عمان- ط1،2006،ص173.

47 دار صادر: ديوان أمرؤ القيس،ص30.

48 مدُ طماس: ديوان لبيد بن ربيعة،ص71.

49 أشرف أحمد عددة: ديوان عبيد بن الأبرص،ص95.